الملامح الصوتية لمقولة التذكير والتأنيث في المضمرات

Gender Phonetic Features in Pronouns

د/ بلقاسم علوي

كليّة الآداب واللّغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة

مخبر اللّسانيات واللّغة العربيّة– بسكرة– الجزائر

تاريخ الإرسال 2021/08/30	تاريخ القبول 2022/10/30	تاريخ النشر 2023/12/15

الملخص		**Abstract**
يبحث هذا المقال مسألة التذكير والتأنيث في المضمرات (الضمائر، أسماء الإشارة، الموصولات)، مستعرضا الاختيارات التي اعتمدتها اللغة العربية، والتنوعات الصوتية التي تمكّن المتخاطبين من التمييز بين المذكر والمؤنث في اللغة العربية، من خلال عرض آراء اللغويين القدماء الذين جاءت ملاحظاتهم حول هذا الموضوع متفرقة، إلى جانب ما تقدمه الدراسات اللسانية المعاصرة حول مقولة التذكير والتأنيث. يهدف المقال إلى الوقوف على المميزات الصوتية، والملامح المطردة للتأنيث ، بوصفه فرعا عن المذكر.		This article deals with pronoun masulinization and feminization (demonstrative and relative pronouns), tackling the choices adopted by the Arabic language, and the phonemic variations which enables the interlocutors to distinguish between the masculine and the feminine in the Arabic language through the studies of the ancient linguists whose observations on the topic were different; Besides to what the contemporary linguistic studies provide about masulinization and feminization. This article tends to stand on the phonetic consistent specifications of femininization as a branch of the masculinization.

كلمات مفتاحية: التذكير؛ التأنيث؛ المضمرات؛ الملامح الصوتية.		**Keywords** :masculinization; femininization; pronoun; phonetic.

المؤلف المرسل: بلقاسم علوي، الإيميل: belkacemaloui66@gmail.com

1.مقدمة:

التفريق بين الذكر والأنثى قضيّة نشأت مع خلق الإنسان، ومنشأ القسمة اللغويّة الثنائيّة (مذكّر/ مؤّنث)، يعود إلى انقسام الجنس انقسامًا حيويًّا طبيعيًّا، إلى ذكر وأنثى، ثمّ جرت هذه القسمة لتَطال ما لا علاقة له بالذكورة أو الأنوثة من الأسماء (ذات أو معنى)، ولتشمل أيضًا العناصر اللغويّة التي تحيل إليها كالمضمرات(الضمائر، أسماء الإشارة، الموصولات)، ما جعل النحاة الأوائل يستقرّون على عدّها أسماء، لانسجامها مع تعريف الاسم عندهم ، وبذلك فهي محكومة بقانون التذكير والتأنيث ، على الرغم من أنّها عناصر جامدة، لا تتحدّد إلّا من خلال ما تعود عليه من معهود لفظي أو ذهني، أو أشارة إلى مشار إليه أو جملة متّصلة باسم، وهو ما جعل كثيرا من الباحثين يصف مقولة التذكير والتأنيث، بأنّها أبعدَ المقولات النحويّة عن المنطق العقلي، وأكثرَ أبواب النحو غموضًا.

وإذا كان هذا الحكم ـ الذي يبدو صارما ـ مبررًا، إذا تعلق الأمر بأسماء الذوات والمعاني والصفات، فإنّنا نعتقد أنّه يجب أن يكون أقلّ صرامة فيما يتعلق بالمضمرات ،كون اسميّة هذه الأخيرة ليست حقيقيّة، وإنّما هي اسميّة اعتباريّة، تخضع لقانون التذكير والتأنيث، الذي تحدده ملامح صوتية معينة تمكّن المتخاطبين من التمييز بين المذكر والمؤنث ، وهو ما سيتناوله هذا المقال من خلال وصف هذه الوحدات اللغوية وتحليلها.

2.الضمائر:

1.2 ضمائر الغيبة:

تحقّق الضمائر كفاية الدلالة على جانب التشخيص، والعدد والجنس، إضافة إلى الجانب النحوي، من خلال مراعاة المحلّ الإعرابيّ في أحوال الرفع والنصب والجر [1]. فالضمير(هو)، دالّ على الغيبة (المحدّث عنه)، والإفراد، والتذكير، والرفع. وهو يختلف عن الضمير (هي) في جانب واحد هو الجنس، يقول سيبويه: «وأمّا المضمر المحدّث عنه فعلامته (هو)، وإن كان مؤنّثا فعلامته (هي)»[2].

وعلى ما يذكر النحاة، أنّ أصل ضمير الغائب للمذكّر هو (الهاء) المتبوعة بضمة طويلة، فالاسم (الهاء) وحدها، والواو تلحقها لخفاء الهاء، نحو: ضربهو، وفي الوقف يوقف على الهاء وحدها، لئلّا يكون الواو بمنزلة الحروف الأصليّة. جاء في المقتضب:«فالأصل في هذا الضمير أن تتبع هاءَه واوٌ، فالاسم الهاء وحدها، والواو تلحقها لخفاء الهاء، فإذا وقفت، وقفت بالهاء وحدها»[3].

وأصل ضمير الغائب للمؤنّث (هي)، الهاء المتبوعة بكسرة. يقول إبراهيم بركات: «الأوضح أمامنا، من خلال أقدم المدوّنات النحويّة واللهجات العربيّة القائمة آنئذ، أنّ العرب على الأرجح، قد فرّقوا بين الغائب والغائبة من حيث التذكير والتأنيث، باستخدام الكسرة، سواء أكان ذلك في الضمير المنفصل، أو في الضمير المتّصل» [4]. ولأنّ الكسرة من جنس الياء، جاز أن تبدل حركة طويلة بالفتحة في الوصل، كما حدث في (قضاءَيْ)، فأصبحت (قضاءا) في بعض خطواتها الصرفيّة [5]. جاء في الكتاب: «الكسر ممّا يؤنّث به. تقول: إنّكِ ذاهبة وأنتِ ذاهبة، وتقول هاتي هذا للجاريّة، وتقول: هذي أمة الله، إذا أردت المؤنّث، وإنّما الكسرة من الياء» [6]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ آل عمران/ 47.

ولو أنّها بقيت كسرة، لوقع التباس بين هاء المؤنّث وهاء المذكّر، في حال إتباع كسرة الضمير لكسرة الاسم المجرور المضاف إليه، وكسرة حرف الجرّ السابق على الضمير، نحو قولنا: (به)، (من ماله). فجاء تمييز المؤنّث بقولنا: (بها) و(من مالها).

ومن دواعي هذا الاختيار، أنّ الكسرة ممّا قد يوقع ثقلاً وعسرًا في نطق بعض الملفوظات، نحو: سُبُلُهي (سُبُلُهَا)، فكانت الفتحة الطويلة أكثر مناسبة لأنّها أخفّ الحركات [7].

أمّا التعبير عن المحدّث عنهم، فيكون في المذكّر (همو) أو(هم)، وفي المؤنّث (هنّ) [8]، في حال الانفصال والاتّصال، أي رفعًا ونصبًا وجرًّا. ولا فرق بين التعبيرين إلاّ في التمييز بين المذكّر والمؤنّث، فالميم علامة جمع الذكور، والأصل إتباعها بضمّة طويلة [9]. يقول سيبويه:«إذا كانت الواو والياء بعد الميم التي هي علامة الإضمار كنت بالخيار: إن شئت حذفت وإن شئت أثبتّ، فإن حذفت أسكنت الميم» [10]. نحو: عليكم/عليكمو، أنتم/ أنتمو، لديهِم/ لديهِمي. ومن دواعي الحذف اجتماع الكسرتين أو الكسرات مع الياء، نحو: بهمي داء، والضمتين مع الواو، نحو: أبوهمو ذاهب، والضمّات، نحو: (رُسُلُهُمُو) في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الأعراف/101. فالأصل في التذكير على ما ذهب إليه سيبويه، هاء فميم فضمّة طويلة (همو)، وهو ما يقابل هاءً فنونا فنونا (هـ +ن+ن)في التأنيث.

يرى إبراهيم بركات أنّ «علامة الذكور هي الضمّة الطويلة، وما الميم إلّا علامة جمع ، فيما إذا حدث التباس في المعنى بين المفرد والجمع، نحو: فعل وفعلوا، وفعلت وفعلتم» [11]، فالالتباس غير حاصل في الفعلين الأوّل والثاني بين المفرد والجمع، فلم تكن هناك حاجة إلى الميم، أمّا في الفعلين الثالث والرابع،

فيحدث الالتباس بين المفرد والجمع إن لم نثبت الميم. وبناءً على ذلك، يقرر أنّ الضمّة الطويلة هي علامة الذكور الغائبين ولا بد أن تكون طويلة إذا لم تكن ميم الجمع[12].

والذي نتصوّره، هو أنّ اللغة اختارت بناء (فَعَلَ) ليكون دالاً بصيغته من غير لاحقة على ضمير الغائب المفرد المذكّر، ثم جرى توزيع بقية الضمائر عليه، جاء في المقتضب: «اعلم أنّ المذكّر الواحد لا تظهر له علامة في الفعل.. وإنّما ضميره في النيّة» [13]. ويقول برجشتراسر «أمّا الفتحة الانتهائيّة في (فعلَ) فأصلها مجهول، ومعناها غامض. ويتّضح كلّ الاتضاح أنْ لا علاقة بينها وبين: (هو) أو (هُ)»[14].

إنّ إثبات الهاء في صيغة (فَعَلَ) سيسبّب إشكالات صوتيّة ونحويّة، فلا يصحّ أن نقول مثلا: (فعلهُهُ) أو (فعلهُهَا)، لتكون الهاء الأولى فاعلًا والثانيّة مفعولًا به، ولا يخفى ما في ذلك من ثقل. فأسقطت الضمير (هو) لدلالة الصيغة عليه، وكذلك الأمر في (فعلوا) حذفت الهاء، وجيء بالضمّة على لام الفعل دليلًا عليها، لأنّ الهاء في الأصل متبعة بالضمّة الطويلة، فلم يعد البناء على هذا النحو، ممّا يشركه فيه بناء آخر فيلتبس، فأسقطت الميم لعدم الحاجة إليها.

فَعَلَ ⟵ فَعَلَهُمُو ⟵ فَعَلَمُو ⟵ فعلُوا

فضمير جماعة الغائبين هو الهاء والميم، وعلامة التذكير هي الضمّة الطويلة. ولم تسقط من الصيغة لأنّ في سقوطها فوات معنى التذكير.

أمّا علامة الإناث المحدّث عنهنّ، فهي النون وحدها، قد تضعّف مقابل ذِكر الميم، وقد تذْكر وحدها إذا لم تكن الميم، يقول المبرّد:«وجمع المؤنّث بالنون مكان الميم. فكلّ موضع لا تكون علامة المذكّر فيه واوا في الأصل، فالنون للمؤنّث فيه مضاعفة، ليكون الحرفان بإزاء الحرفين. وكلّ موضع علامة المذكّر فيه الواو وحدها، فنون المؤنّث فيه مفردة» [15]. وهذا يعني أنّ الأصل في النون المضاعفة في (هنّ) و(كتابكنّ) هو: (هُمْن) و(كتابكُمْن)، فأدغمت الميم في النون لتقاربهما في المخرج[16].

وعلى ذلك فإنّ النون للمؤنّثات في (فعلن)، تقابل الضمّة الطويلة للمذكّرين في (فعلوا)، وفي هذه المخالفة بين إثبات الحركة للمذكّر، وإثبات الحرف للمؤنّث، إمعان في الفصل بين الجنسين، ويذكر أنّ بعض العرب من تميم وأسد، يجعلون مكان الكاف للمؤنّث الشين، نحو: إنّشِ ذاهبة، ومالشِ ذاهبة، يريدون: إنكِ ذاهبة، ومالكِ ذاهبة. ومن العرب من يلحقون الكافَ السينَ، ليبيّنوا كسرة التأنيث نحو: أعطيتكس، وأكرمكس. فإذا وصلوا لم يأتوا بها، لأنّ الكسرة تَبِين، ومنهم من يلحق الشين، ليبينوا بها الكسرة في الوقف، نحو: أعْطَيْتُكِشْ، وأُكْرِمُكِشْ [17]. يقول سيبويه:«فأرادوا الفصل بين المذكّر والمؤنّث،

وأرادوا التحقيق والتوكيد في الفصل، لأنّهم إذا فصلوا بين المذكّر والمؤنّث بحرف، كان أقوى من أن يفصلوا بحركة »[18].

أمّا ضمير التثنية (هما) فلا دلالة فيه على تذكير أو تأنيث، ولا يظهر الفرق بين المذكّر والمؤنّث إلّا في حال إسناد الضمير إلى الفعل، (فعلا /فعلتا)، (يفعلان/تفعلان)، ومميّز التأنيث حينئذ يكون التاء، التي تكون أيضًا مميّزًا بين الجنسين في (فعل) و(فعلتْ)، و(يفعل) و(تفعل)[19].

يردّ (برجشتراسر) سببَ عدم التفريق بين المؤنّث والمذكّر في التثنية في اللغة العربيّة، إلى كون المؤنّث حادثٌ في العربيّة، ولا يوجد في اللغات الساميّة الأخرى، لكن عبارته في ما قرّره يلفّها الغموض، ولا نكاد نفهم منها شيئا، يقول إنّه (أي المثنّى):«حديث بالنسبة إلى سائر الضمائر، ولا يوجد في إحدى اللغات الساميّة غير العربيّة، فاخترعته هي. والعرب كانوا يستحبّون التثنية أكثر من سائر الساميّين، ويستعملونها استعمالا أوسع منهم»[20].

2.2 ضمائر الخطاب:

تشكّل الكسرة علامة تأنيث، في ضمائر الرفع المتّصلة والمنفصلة المعبّرة عن المفرد المخاطب، في مقابل الفتحة التي تمثّل علامة التذكير، يقول سيبويه: «وحُرّك بالكسر لأنّ الكسر ممّا يؤنث به، تقول: إنّك ذاهبة، وأنت ذاهبة، وتقول: هاتي هذا للجاريّة، وتقول: هذي أمة الله، واضربي، إذا أردت المؤنّث، وإنّما الكسرة من الياء»[21]. ويقول المبرّد:«الكسر من علامات التأنيث. ألا ترى أنّك تقول للمؤنث: إنكِ فاعلة، وأنتِ فعلتِ، وأنتِ تفعلين؛ لأنّ الكسرة من نوع الياء؛ فلذلك ألزمته الكسرة»[22].

وفي بعض اللهجات العربيّة تتحوّل الكسرة إلى حركة طويلة، نحو: كتبتيه [23]، يقول صاحب الكتاب:«وحدثني الخليل أنّ ناسًا يقولون: (ضربتيه)، فيلحقون الياء. وهذه قليلة» [24]. ومنهم من يلحق الكاف إذا وقعت بعدها هاء الإضمار ألِفًا في التذكير، وياءً في التأنيث، نحو: أُعطيكيها، وأُعطيكيه للمؤنّث، وأعطيكاه وأعطيكاها للمذكّر[25]، وإنّما فعلوا هذا توكيدًا في التمييز بين المذكّر والمؤنّث.

يذهب (برجشتراسر) إلى أنّ مدّ الحركة هو الأصل: يقول«ونشاهد مثله في المخاطب المؤنّث المفرد؛ فقد يكون: "قتلتيه"، وقد يكون "قتلتِهِ"، والمدّ هو الأصل»[26].

وتأتي الكسرة الطويلة بوصفها مميّزًا للتأنيث ، في حال إسناد الفعل المضارع، أو فعل الأمر إلى المخاطبة المفردة، نحو (تفعلين) و(افعلي). ويرجّح إبراهيم بركات ، أن تكون هذه الكسرة هي الكسرة التي

استخدمت في (تاء) فعلت، وقد أصبحت سابقة في المضارع بعد أن كانت لاحقة بالماضي، كي لا يلتبس الخطاب بالغيبة[27]، والفرق أنّها في الماضي قصيرة، وفي المضارع طويلة.

ولو سلّمنا بما قرّره (برجشتراسر)، من أنّ مدّ الكسرة في التأنيث هو الأصل، وجب البحث عن أسباب تحوّلها إلى كسرة من غير مدّ، في نحو: (أنتِ) و(فعلتِ) و(منكِ) ، وبقائها في(افعلي) و(تفعلين).

الثابت أنّ الكسرة الطويلة تحتاج إلى جهد أكثرَ لإبرازها، وزمن أطولَ لأدائها، وبخاصّة إذا أتبعها ساكن، نحو: أنتِ(ي) التي، وفعلتِ(ي) الصواب، ولكِ (ي) المال. ولأنّ اللغة تميل إلى التخفيف، لم يكن هناك بدّ من إسقاطها، والاكتفاء بها قصيرة، ما دام الضمير لم يفقد دلالته على التأنيث.

أمّا في (افعلي) فالأمر يختلف، إذا أتبعها ساكن، لأنّ في إسقاط المدّ التباس بضمير المتكلّم المذكّر، نحو (افعلي الخير)، تصير: (افعلِ الخير).

أمّا في (تفعلين)، فقد تبدو النون فيها للتوكيد، إذا ما حذفت الياء، كما في (لتفعلِنْ).

وقد يكون من أسباب المحافظة على الكسرة الطويلة أيضًا في (افعلي) و(تفعلين) هو«المحافظة على موسيقيّة اللغة من خلال موسيقيّة الكلمة، ويكون ذلك إذا تصوّرنا هذه الكسرة الطويلة قصيرة في مضارعٍ في حال رفع، فتجد فتحة متطرّفة قبلها كسرة، وقبل الكسرة ضمّة، فتوالت الحركات الثلاث، ممّا يصعّب النطق بها»[28].

وفي جمع المخاطبين، تكون الميم علامة التذكير، وتكون النون في جمع المخاطبات علامة التأنيث، يقول سيبويه: «فصلوا بين المذكّر والمؤنّث بالنون حين قالوا: ذهبوا وذهبن، وأنتم وأنتنّ» [29]، وبذلك تكون نون المؤنّث في مقابل الواو في جماعة المذكّرين، وليست بديلاً عن الميم.

ذهبـ (وا) / ذهبـ (نَ)

أنتـ(مو) / أنتـ(مْنَ) ⟵ أنتـ (نْـنَ).

لم تميّز العربيّة في حالة المثنّى بين مذكر ومؤنث، فكلّ ما يحققّه ضمير الاثنين المخاطبين (أنتما) هو: جانب العدد والخطاب، يقول إبراهيم بركات:«جانب الجنس (التذكير والتأنيث) قد أهمل، كما أهمل في حال الغيبة، وربما كان لدلالة الحضور والشهود أثناء الخطاب مبرّر لترك جانب النوع، وربما كان ذلك لحداثة استخدام المثنّى وانفراد العربيّة به»[30].

ولسنا نرى فيما ذكره الباحث شيئا يقنع، فلا دليل على حداثة المثنّى في اللغة العربيّة إلّا ما ذكره (برجشتراسر)، من أنّ العرب اخترعوه. كلّ ذلك لأنّه (المثنّى) لا يوجد في واحدة من اللغات الساميّة

الأخرى، على ما ذكر (برجشتراسر). ولأنّه اختراع عربيّ، اعتراه النقص، فلم يتميّز به مذكّر عن مؤنّث، وسواء قصد ذلك أم لم يقصد فإنّ عبارته:« ولا يوجد في إحدى اللغات الساميّة غير العربيّة، فاخترعته هي»[31] يفهم منها هذا.

لكنّنا نراه يناقض نفسه حينما يقول:« والعرب كانوا يستحبون التثنية أكثر من سائر الساميّين، ويستعملونها استعمالًا أوسع منهم»[32].

أما القول بأنّ الحضور والمشاهدة أغنت عن تنويع الضمير، فيضعفه أنّ الحضور في الجمع، لم يكن سببًا في عدم التمييز بين المذكّر والمؤنّث، فاللغة ميّزت جماعة الذكور بـ (أنتم)، وجماعة الإناث بـ (أنتن)، ولو أنّ المشاهدة كانت مبرّرا لجرت اللغة في الجمع كما جرت في التثنية[33].

3.2 ضمائر التكلّم:

	المفرد	المثنّى والجمع
الرفع	أنا	نحن
	فعلت (تُ)	فعلنا (نا)
النصب	إيّاي	إيّانا
الجرّ	كتابي (ي)	كتابنا (نا)

خصّت اللغة العربيّة المتكلّم المفرد بضمير (أنا) في حال الرفع، وبالتاء المضمومة إذا اسند إليها فعل، نحو: كتبتُ. وبالياء التي هي كسرة طويلة، في حالي النصب والجرّ، نحو: يعلمنِي، معلّمي. وتكون في حال الضمير المنفصل المنصوب، ياءً مفتوحة (إيايَ).

وفي الجمع والتثنية في حال الرفع (نحن)، وفي حالي النصب والجرّ عبّرت اللغة بالضمير (نا).

والملاحظ أنّ اللغة العربيّة قد جنحت إلى أعلى درجات الاقتصاد. ففي كلّ أحوال التكلّم لا يوجد ما يفرق بين المذكّر والمؤنّث، ولا يوجد فرق بين المثنّى والجمع. ومع هذا، لم ينشأ أيّ التباس لدى المستمع، لأنّ لسان حال المتكلم كفاه ذلك، وكفى اللغة مؤونة استحداث مميّز يفصل بين الذكر والأنثى.

3. أسماء الإشارة :

حرصت اللغة العربيّة على التمييز بين المذكّر والمؤنّث في أسماء الإشارة، فوضعت للمذكّر ألفاظًا، وللمؤنّث أخرى. كما ميّزت فيها بين القريب والبعيد، والمفرد والمثنّى والجمع. جاء في شرح التصريح:«والمشار إليه إمّا واحد أو اثنان، أو جماعة، فهذه ثلاثة، وكلّ واحد منها إمّا مذكّر أو مؤنّث، فهذه ستة.. وكلّ واحد من هذه الستة إمّا قريب المسافة أو بعيدها، فهذه اثنا عشر.. وعلى اعتبار المتوسّط تصير ثمانيّة عشر.. والمخاطب بالإشارة يكون واحدا مذكّرا أو مؤنّثا، أو اثنين مذكرين أو مؤنثين، أو جماعة ذكورا وإناثا، فهذه ستّة تتنوّع تنوّع الثمانيّة عشر المذكورة في المشار إليه، بحسب هذه الستة تصير ثمانية عشر في ستة، فالمجموع مائة وثمانية»[34].

وضع للمفرد المذكّر القريب (ذا)، وتلحقه هاء التنبيه في أوّله، (هذا). جاء في المقتضب:« أمّا ما كان ممّا يدنو منك من المذكّر فإنّك تقول فيه هذا، والأصل ذا، و(ها) للتنبيه»[35]. وذاك وذلك للبعيد.

وللمؤنث المفرد: ذي ، وتي ، وتا، وذهِ ، وذهْ ، وتهِ ، وتهْ ، وذهِي ، وتهِي ، وذاتُ ، وتِيك، وتَيك وذِيك، وتلك، وتالك[36].

ووضع للمثنى المذكّر: ذان، ذين، ذانك، ذينك[37].

وللمثنى المؤنّث: تان، تين، تانك، تينك[38].

يظهر واضحًا أنّ مميّز التأنيث فيما ذكرناه من أسماء الإشارة هو: الكسرة أو التاء، أو كلاهما معًا.

فتكون الكسرة وحدها في: (ذي، ذهِ ، ذهْ ، ذهِي، ذِيك). وهي مميّز التأنيث في الضمائر أيضًا.

وتكون التاء وحدها في: (تا، تَلك، تَالك، ذاتُ، تان، تين، تانك، تينك). وهو مميّز التأنيث في الأسماء.

وتأتي التاء مؤكّدة بالكسرة، في: (تي ، تهِ، تهْ، تهِي، تِيك، تِلك).

والهاء التي تلحق اسم الإشارة في ما سبق، إنّما تأتي لتمكين إظهار الكسرة، وهو أداء قد لاحظناه في الضمائر.

ويعبّر عن الإشارة إلى الجمع بأولاء ممدودة ومقصورة، وتلحقها (ها) التنبيه فتكون للقرب، نحو: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ البقرة/85. وتلحقها الكاف فتكون للبعد، نحو قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة/ 5. وأكثر ما تستعمل للعاقل، وقد تستعمل لغير العاقل قليلا[39]، نحو قول الشاعر من الكامل:

ذَمُّ المَنَازِلِ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللّوى ... والعَيْشِ بَعْدَ أولَئِكَ الأَيَّام[40]

ويراد عند ذاك القلّة، نحو قوله تعالى :﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ الإسراء/36.

ويشار للجمع أيضًا بأولالك وهؤلاك للبعيد.

لا تفرقة بين جمع المذكّر وجمع المؤنّث. فمن الإشارة إلى جمع المذكّر، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾الإنسان/27. ومن الإشارة إلى جمع المؤنّث، نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ هود/78.

يذكر المبرّد في باب المخاطبة بأسماء الإشارة، أنّ المتحدّث قد يأتي باسم الإشارة ملحقًا به حرف المخاطبة[41]، وفيه وجهان:

الوجه الأوّل: مطابقة الكاف للمخاطب إفرادًا وتثنيّة وجمعًا، تذكيرًا وتأنيثا [42]، فيكون (ذلكَ) بفتح الكاف إذا كان المخاطب ذكرًا، نحو قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾الإسراء/39. ويكون (ذلكِ) بكسر الكاف إذا كان الخطاب للأنثى، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ مريم/21. و(ذلكما) للاثنين، نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ الأعراف/22. و(ذلكم) لجمع الذكور، نحو قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ يونس/3. و(ذلكن) لجماعة الإناث نحو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ يوسف/32.[43] فتتحدّد بذلك جهة المشار إليه وجهة الخطاب في آن.

الوجه الثاني: إفراد الخطاب وتذكيره على كلّ حال، بفتح الكاف للمفرد والمثنّى والجمع للمذكّر والمؤنّث، نحو قوله تعالى:﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ ﴾البقرة/85.

1 –الأسماء الموصولة:

تنقسم إلى قسمين، مختص ومشترك:

المشترك: هو ما كان لعدّة معانٍ بلفظ واحد، نحو: من ، وما، وأيّ[44]، فلا تشير إلى عدد أو جنس معيّن، فهي تقع على الواحد والاثنين والجماعة، وقد أوحى اتّساع دلالة (من ، ما) ل.(هنرى فليش)، بأنّها تعبّر عن المحايد، لأنّها لا تشير إلى جنس معيّن، يقول: «وتستعمل (من) للعاقل، و(ما) لغير العاقل، وهو تعبير عن المحايد الذي يجعل الفعل مسندًا إلى الشخص الثالث المذكّر المفرد، دون تغيير»[45].

قد يكون ما دفع (هنري فليش) إلى هذا الرأي، هو أنّ المستمع لا ينصرف ذهنه عند إطلاق (ما) أو (من) إلى تذكير أو تأنيث، وإنّما إلى كون الموصول يشير إلى عاقل أو غير عاقل.

وفي تعليق لإبراهيم أنيس على هذا الرأي، يقول: «وقد حاول بعض المستشرقين أن يتلمّس هذا النوع (المحايد) في الفصيلة الساميّة، وحدّثونا أنّه من الممكن أن نلحظ بقاياه وآثاره في (ما) الموصولة، غير أن آخرين قد وصفوها على أنّها في الأصل السامي مؤنث (من)»[46].

أمّا المختصّ منها فهو ما نصّ على شيء واحد لا يتجاوزه إلى غيره، ويسمّى النصّ أيضًا، وهو (الذي)[47] للمفرد المذكّر و(التي) للمفرد المؤنّث، و(اللذان) للمثنى المذكّر، و(اللتان) للمثنى المؤنّث، و(الذين)[48] لجمع الذكور، و(اللائي واللاتي واللواتي) لجمع المؤنّث[49].

يقول البصريّون إنّ أصل الذي، (لذ) كَعَم، «فاللام فاء الكلمة والذال عينها والياء لامها»[50].

وقال الكوفيّون، الأصل في (الذي) الذال وحدها، وهي عندهم كـ(هذا)، فجوهرهما واحد، وإنّما يختلفان بحسب ما يلحقهما من زيادات[51].

الملاحظ أنّ اللغة قد ميّزت فيما اختص من أسماء الموصول، بين المذكّر والمؤنّث، من خلال تغير الذال في المذكّر إلى تاء في المؤنّث.

يرى إبراهيم بركات، أنّ (الألى) للذكور ، بالرغم ممّا فيه من قصر، فهو جمع (الذي) من غير لفظه، نحو: رجل وامرأة، ويختار أن يجعله من أمثال جموع التذكير نحو: جرحى وقتلى[52].

وممّا جاء على غير لفظه للتعبير عن جمع الإناث: اللائي (اللاء) فيمكن عدّ علامة التأنيث فيهما الألف الممدودة، المتبوعة بكسرة طويلة كما في اللائي، أو بكسرة قصيرة كما في (اللاء)[53].

خاتمة:

حرصت اللغة العربيّة على التمييز بين المذكّر والمؤنّث في المضمرات، باعتبارها عناصر لغوية تتّسم بالاسميّة الاعتباريّة تحيل إلى ذات أو معنى، لتحقيق المطابقة من حيث النوع بين هذه الوحدات اللغويّة، وما تحيل إليه، وهو ما يؤكّد منطق اللغة الذكي في مسألة التذكير والتأنيث.

نخلص في نهاية هذا المقال إلى جملة من النتائج يمكن رصدها في النقاط الآتية:

–بناء (فَعَلَ) دال بصيغته من غير لاحقة على ضمير الغائب المفرد المذكّر، ثم جرى توزيع بقية الضمائر عليه.

–مميّز التذكير في ضمائر الغيبة الضمّة، أمّا علامة الإناث المحدّث عنهنّ، فهي النون وحدها.

–مميّزُ التأنيث في ضمائر الرفع المتّصلة والمنفصلة المعبّرة عن المفرد المخاطب،الكسرةُ، في مقابل الفتحة التي تمثّل علامة التذكير.

–مميّز التأنيث في أسماء الإشارة هو: الكسرة أو التاء، أو كلاهما معًا.

–في أسماء الموصول، يكون التمييز بين المذكّر والمؤنّث، من خلال تغيّر الذال في المذكّر إلى تاء في المؤنّث.

الهوامش:

[1] – إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط1، 1988، ص 161.

[2] – سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر، ط3، ج2، ص351.

[3] – المبرّد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، مصر، 1994، ج1، ص399.

[4] – إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، 1988، ص 165.

[5] – ينظر: المرجع نفسه، ص 166.

[6] – سيبويه، الكتاب، ج3، ص 272.

[7] – ينظر: إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، ص 166.

[8] ينظر: سيبويه، الكتاب، ج2، ص 351.

[9] – ينظر: إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، ص167.

[10] – سيبويه، الكتاب، ج4، ص 191.

[11] – إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، ص 168.

[12] – ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[13] – المبرد، المقتضب، ج1، ص 405.

[14] – برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربيّة، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1994، ص 81.

[15] – المبرد، المقتضب، ج1، ص405.

[16] – ينظر: إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، ص 171.

[17] – ينظر: سيبويه، الكتاب، ج4، ص 199– 200.

[18] – سيبويه، الكتاب، ج4، ص199.

[19] – تفعل: قد تكون التاء علامة تأنيث للضمير هي، أو للمخاطب المذكّر (أنت).

[20] – برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربيّة، ص78.

[21] – سيبويه، الكتاب، ج3، ص272.

[22] – المبرّد، المتقضب، ج3، ص 394.

[23] – في لهجتنا، وفي لهجات كثير من البلاد العربيّة، لا يزال هذا الأصل هو الجاري على ألسنة الناس. فنقول: كتبتيه، وضربتيه، كلّ ذلك لأجل إظهار الكسرة الدّالّة على التأنيث.

[24] – سيبويه، الكتاب، ج4، ص200.

[25] – ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[26] – برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربيّة، ص 78.

[27] – ينظر: إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، ص 177.

[28] – المرجع نفسه، ص 179.

[29] – سيبويه الكتاب، ج4، ص199.

[30] – إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، ص181.

[31] – برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربيّة، ص78.

[32] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[33] – الأمر يختلف في ضميري التكلّم، لأنّ المتكلّم بنبئ بلسان حاله عن جنسه.

[34] – خالد الأزهري، شرح التصريح على التوضيح، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2000، ج1، ص142.

[35] – المبرد، المقتضب، ج4، ص 277.

[36] – السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (دط)، 1992، ج1، ص 257.

[37] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[38] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[39] – ينظر: ابن عقيل بهاء الدين ، شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، مصر، ط20،ج1، ص 132.

[40] – البيت لجرير من كلمة يهجو فيها الفرزدق، مطلعها:

سَرَتِ الهُمُومُ فَبِتْنَ غَيْرَ نِيَام وأَخُو الهُمُومِ يَرُومُ كُلَّ مَرَام

[41] – ينظر: المبرّد، المقتضب، ج3، ص275-276.

[42] – ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2000 ، ص99.

[43] – وردت في القرآن الكريم (ذلِكِ) (مرّتين)، مريم:21، و الذاريات: 30. و (ذلكما)، مرّة واحدة، و (تلكما) مرّة واحدة، (تلكم) مرة واحدة، (ذلكم) سبعًا وأربعين مرة ، (ذلكنّ) مرة واحدة.

[44] – خالد الأزهري، شرح التصريح، ج1، ص150.

[45] – هنري فليش، العربيّة الفصحى دراسة في البناء اللغوي، تعريب وتحقيق: عبد الصبور شاهين، المنيرة، (دت)، ص287.

[46] – إبراهيم أنيس، من أسرار العربيّة، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، مصر، ط6، ص160.

[47] – في (الذي) أربع لغات: ينظر: ابن عصفور، المقرّب، ص83.

(الذي) بتخفيف الياء، و (الذيّ) بتشديدها، نحو: وليس المال فاعلمه بمال.. وإن أغناك إلّا للذيّ . ينظر: السيوطي، همع الهوامع، ج1، ص283، بلا نسبة ، وينظر: البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1997 ، ج5، ص 405، بلا نسبة.

(الذِ) بحذف الياء، (الذْ) بتسكين الدال بعد الحذف نحو: فكنت والأمر الذي قد كيدا... كالذْ تزيّن زُبيةً فاصطيدا. ينظر: البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب، ج6، ص568. بلا نسبة .

ومثلها في (التي.) نحو: شُغِفتْ بك اللّتِ تيّمتْك فمثلُ ما ... بكَ ما بها من لوعةٍ وغرام.

البيت من شواهد الهمع، ج1، ص284. جاء في تخريجه: ليس للبيت قائل معروف.

[48] – جمع (الذي) الذين، في جميع الأحوال، ومن العرب من يقول: (الذون) رفعًا، والذين نصبًا وجرًّا. نحو:

نحن الذون صبحوا الصباحا...يوم النخيل غارة ملحاحا.

قيل: البيت لرجل من بني عقيل جاهلي، اسمه أبو حرب. وقيل: هو لليلى الأخيلية. من شواهد الهمع ج 1، ص285. وبنو هذيل يقولون: اللائين في جميع الأحوال. ومنهم من يقول اللاءون رفعًا، واللائين نصبا وجرا. ينظر: ابن عصفور، المقرّب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1998ص84- 85.

[49] – قد تحذف الياء في جميع ذلك: (اللاء، اللات، اللوات). ينظر: ابن عصفور: المقرّب، ص85.

[50] – ابن يعيش أبو البقاء موفق الدين ، شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ج3، ص139.

[51] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[52] – ينظر: إبراهيم إبراهيم بركات، التأنيث في اللغة العربيّة، ص201

[53] – ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

قائمة المراجع:

- إبراهيم إبراهيم بركات، (1988) ، التأنيث في اللغة العربيّة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط1،
- إبراهيم أنيس، (1978)، من أسرار العربيّة، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، مصر، ط6.
- ابن عصفور، أبو الحسن علي، 1998، المقرّب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1.
- ابن عقيل بهاء الدين ، (دت)، شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، مصر، ط20.
- ابن يعيش، أبو البقاء موفق الدين ، (دت)، شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (دط).
- الأزهري، خالد بن عبد الله، (2000)، شرح التصريح على التوضيح، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1.

- برجشتراسر، جوتهلف،(1994)، التطور النحوي للغة العربيّة، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر، (1997)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4.
- السامرائي، فاضل صالح، (2000،) ، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (دت)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (1992)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (دط).
- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد، (1994)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، مصر.
- هنري فليش، (دت)، العربيّة الفصحى دراسة في البناء اللغوي، تعريب وتحقيق: عبد الصبور شاهين، المنيرة، (دط).